

موقف ألمانيا ازاء الاحتلال الانجليزي لمصر *

بقلم الدكتور محمد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر بالكلية

لم تكن للدولة الألمانية التي نشأت حديثاً مصالح حيوية هامة في مصر تدعوها جادة إلى أن تبث العراقيل في وجه إنجلترا أو تناهض السياسة التي ارتسمتها الحكومات البريطانية لنفسها في وادي النيل. لقد كانت مسألة مصر أول الأمر مرتبطة في ذهن المستشار الامبراطوري الألماني بمسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها. ولم تكن السياسة التي اختطها بيزمرك Bismarck في السنوات العشر التي تلت سنة ١٨٧١ — وهي السنة التي تمت فيها الوحدة الألمانية بالدم والحديد — سياسة المحافظة علي كيان الدولة العثمانية أو تحقيق سلامتها، فلقد صرح في أحاديث متعددة له، وذلك حين ثارت المشكلة الشرقية ثورتها العنيفة في سنة ١٨٧٦ بأن ليس للحكومة الألمانية مصالح مهمة تدعوها للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية منها أو الخارجية، وأنه لا يرى لمسيحي هذه الدولة أو لمسلميها على سواء، فمضت هذه الدولة كما قال مرة منهكاً ولكن جادا لا يدعو له لأن يبدل في سبيله دم جندي بروسي واحد، وأن كل ما يهمه في هذه الأزمة المستحكمة العقدة المصائب هو أن يضع تقوده العظيم في خدمة أصدقائه من الدول الأوروبية الكبرى وليست الدولة العثمانية واحداً منهم (١)

* انظر المراجع في آخر البحث

(١) الوثائق الألمانية (Grosse Politik). بيلوف Buelow وزير الخارجية الألمانية الى

مستتر Munster السفير الألماني في لندن؛ بتاريخ سنة ١٨٧٦

وزيمرك هو الذي دعا الانجليز مرارا، سرا وعلانية لأخذ مصر ، وهو الذي عمل على تثبيت أقدامهم فيها ، وعضد سياسة الاحتلال في سنة ١٨٨٢ ، فأيد سياسة إنجلترا تأييدا لا تشوبه شائبة ، ونصرها نصرا ميينا ، وجعل من مسألة مصر وسيلة قوية لربط إنجلترا بدول التحالف الثلاثي ، ذلك التحالف الذي كونه من المانيا والنمسا والمجر وإيطاليا لرعاية الوحدة التي أنشأها في ميادين القتال : سدوا وسيدان ، والمحافظة على مركز المانيا المتفوق في أوروبا .

* * *

لقد اهتمت الحكومة الامبراطورية الألمانية لأول مرة بالمسألة المصرية حين ثارت المشكلة الشرقية في أوائل الربع الأخير للقرن التاسع عشر . فالمستشار الألماني يري أن مصر جزء من هذه المسألة لا ينفصل عنها ، وهو لا يهتم بالمسألة المصرية لقيمتها في ذاتها أو لمصالح ألمانيا فيها ، وإنما هو يهتم بأمر مصر كوسيلة يسترضى بها الحكومة البريطانية التي ما برحت تنظر إلى ما لألمانيا من مركز متفوق في أوروبا بعين تم عن جانب كبير من الحسد والحقد وتهاب شوكتها ، ولذا فهو من أول فرصة ينعي على الحكومة الانجليزية عدم إسرعها إلى استغلال هذه الأزمة الشرقية ، هذه الفرصة الثمينة في نظره ، ويرى أنه ينبغي لها أن تفكر جديا من الآن في أخذ نصيبها من الأسلاب التي تراكت نتيجة لضعف الدولة العثمانية المتزايد وتدهورها ، ويرى أن خير مكان وأنسب بقعة تستطيع أن تذهب إليها إنجلترا وبممكنها أن تروى غليلها منها هي وادي النيل .

فهو قد اقتنع تماما بضرورة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبرى ، ورأى في هذا التقسيم خير طريق للمحافظة على السلام في أوروبا وعلى السيطرة الألمانية فيها ، فتأخذ صديقه النمسا والمجر البوسنة والهرسك أي تسيطر على غربي البلقان تقريبا ، وتهيمن روسيا على شرقيه وينفذ نفوذها إلى المضائق البوسفور والدردينيل ، وتضم إنجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا ، فحصر بموقعها

الجغرافي الممتاز ومواردها التي لا ينضب معينها كافية في نظره لأن تعوض إنجلترا عما تفتطه روسيا من ممتلكات الدولة العثمانية في البلقان .

وليس صحيحا من الناحية التاريخية ما يزعمه الاستاذ سيتون واطسون Seton Watson ، استاذ الدراسات الصقلية في جامعة لندن ، من أن زمرك أراد من وراء هذه السياسة إصابة عصفورين بحجر واحد : إرضاء إنجلترا من ناحية ، وإفساد العلاقات الإنجليزية الفرنسية من ناحية أخرى (١) ، فيظهر من خلال هذا البحث أن زمرك كان مخلصا في ذلك الوقت (من سنة ١٨٧٧ إلى ١٨٨١) في العرض الذي قدمه للحكومة الإنجليزية ، وأنه في نفس الوقت كان يعمل على خلق جو من التعاون السياسي بين الدولتين الغربيتين خارج حدود القارة الأوربية .

حرص زمرك إذن حرصا كبيرا علي أن يوجه انتباه الحكومة البريطانية الى انماز هذه الفرصة ، فرصة قيام المسألة الشرقية ، ففي مذكرات له سطرها بعناية كمعادته لوزارة الخارجية الألمانية في خريف سنة ١٨٧٦ يرى أنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة إنجلترا الخارجية . فإنه يقترح أن تنهج إنجلترا نفس السنن الذي تنهجه روسيا ، فإذا كانت روسيا تبغى أن تستحوذ علي النقاط الحربية والاستراتيجية الضرورية لها وذلك بالسيطرة على المضائق البوسفور والدردينيل والاشراف على الآستانة ، فعلي الحكومة الإنجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة علي مصر وقناة السويس ، فهو إذن يرى أن يكون موقف إنجلترا في وادي النيل مشابها لموقف النمسا علي الأقل بأزاء الولايتين العثمانيين المتاخمتين لها . البوسنة والهرسك ويرى في ذلك الحل حلا سلميا للمشكلة الشرقية معقولا ومقبولا وينطوي علي شيء كبير من الحكمة وبعد النظر ، وهو حل خير في نظره من معارضة إنجلترا لتوسع روسيا في البلقان وقيام حرب شعواء بينهما قد تتحول إلى حرب أوربية عامة طاحنة

(١) في كتابه Disraeli and Gladstone and The Eastern Question ص ٣٠٩

تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق في أوروبا ، فكما يقول « إنه من الخير لبريطانيا العظمى أن تأخذ قناة السويس والاسكندرية ، بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا ، وبهذا وحده تتوثق عري السلم في أوروبا » (١).

وهو يري أنه إذا خشيت الحكومة الإنجليزية من اتباع مثل هذه السياسة مناوئة فرنسا وعداءها ، فما عليها إلا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى إلى مناطق نفوذ ، فتوافق فرنسا على تفوق النفوذ الإنجليزي في مصر نظير موافقة الإنجليز على تفوق النفوذ الفرنسي في سوريا ، وبذا ترضى فرنسا . وكان بزمرك يرى أن الغلبة والتفوق في النهاية سيكون للدولة الممتازة من الناحية البحرية والأكثر مرونة في الاستعمار (٢).

ولم يقتصر بزمرك على عرض هذه الفكرة على حكومة دزربيلي المحافظة بل أرسل إلى سفيره في روسيا شفينتس Schweinitz يطلب منه أن يعرض على الحكومة القيصرية الروسية فكرة أخذ الإنجليز لمصر ليعرف ماذا يكون موقف روسيا ، فهو يعتقد أن من الضروري أن توافق روسيا على هذه الفكرة إذا أرادت ألا تقاوم إنجلترا رغبة الروس في السيطرة على القسطنطينية والمضائق البوسفور والدرديل (٣).

وليس من العجيب أن يجد أمرا صوابا وحكما زيارة نوبار باشا للندن في ربيع سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لبسط حماية إنجليزية على مصر (٤) ، ويكرر بزمرك بأنه

(١) الوثائق الألمانية .

(٢) نفس المرجع ٢٠-٢٠ أكتوبر سنة ١٨٧٦

(٣) نفس المرجع يولوف الي شفينتس .

(٤) كما يعلق على رسالة أرسلها له سفيره في لندن بتاريخ ٤ إبريل سنة ١٨٧٧ وكان نوبار قد قام بهذه المهمة دون أن يكون الحذبو على علم بها وما كان مطلقا ليوافق عليها أو يرضاهما ، ولقد لجأ نوبار الى عرض هذه الفكرة على الحكومة الإنجليزية حين توترت العلاقات بينه وبين الحذبو — أنظر الوثائق الألمانية .

نصح وما اتك ينصح لبريطانيا العظمى بأخذ مصر ، وأن هذه الخطوة هي خطوة مباركة في نظره ، هي أجل خدمة تستطيع إنجلترا تقديمها للسلام في أوروبا ، فالاستشار الألماني بخشي قيام حرب أوربية بين روسيا وإنجلترا تجدد الدولة الألمانية تقسها مرغمة على الدخول في غمارها .

ولكن الحكومة الانجليزية ، حكومة المحافظين ، ما كانت تميل بسهولة مثل هذا المقترح ، فرئيسها لورد بيكونزفيلد Beaconsfield ، بالرغم من أنه هو الذي عقد صفقة قناة السويس فاشترى أسهم الحديد فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بالشرق ، وبالرغم من أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وفخامة آثارها التي تدل علي مجدها القديم وفتنه جمال نيلها ونخيلها وأذله كثرة خيراتها (١) — إلا أنه كان في ذلك الوقت لا يرى في احتلال الانجليز لمصر وسيلة ناجعة لدرء الخطر الروسي عن الشرق الأدنى فهو يقول . إذا أخذ الروس الآستانة فإنه يمكنهم في أي وقت أن يجوسوا بجيوشهم خلال سوريا ويصلوا الى مصب النيل ، وعند ذلك ماذا تكون فائدة أخذ الانجليز لمصر ؟ وحتى قواتنا البحرية لا تستطيع أن تعزز مركزنا في مثل ذلك الموقف ، وان الناس الذين يتكلمون بهذه الطريقة مجهلون الجغرافيا تماما ، والآستانة لا مصر ولا قناة السويس هي مفتاح الطريق الي الهند (٢) . ولقد أبدى بيكونزفيلد عجبه والشك الذي خالجه نفسه من كثرة عروض بزمرك ، وذكر أنه يفضل أن يستولي علي آسيا الصغرى ذاتها (٣) .

علي أن الحكومة الانجليزية اذا كانت رغبة عن احتلال مصر في ذلك الوقت

(١) انظر Monypenny and Buckle: Life of Disraeli الجزء الاول . الفصل الخاص برحلة ديزريلي الي الشرق ومصر . ولقد تنقل ديزريلي في أيام شبابه في مصر من رشيد الي الشلال .

(٢) انظر المرجع السابق جزء ٢ ص ٨٤ عن كتاب

Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٩٨

(٣) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ١٠٩ .

الا أنها كانت حريصة علي ألا تمتد اليها يد الحرب التي ثارت ثائرتها في البلقان ،
فلقد انتشرت الاشاعات في ذلك الوقت التي تقول بأن روسيا تنوي ادخال مصر
في غمرة الحرب ، فهي تنوي محاصرة الشواطئ المصرية باسطول البحر الابيض
المتوسط ، أو هي تنوي أخذ أرمنية وأرمينية مفتاح سوريا وسوريا مفتاح مصر ،
ولذا قدم داربي Derby وزير الخارجية الانجليزية الي شوفالوف Shuvalov
سفير روسيا في لندن بأن مصالح إنجلترا سوف تضطرها الي اتخاذ خطة الدفاع اذا
مس خطر حرية الملاحة في قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم علي مصر (١).
واستفسرت الحكومة الانجليزية فوق ذلك من روسيا عما اذا كانت عازمة علي
محاصرة سواحل مصر أم لا ، وبينت في نفس الوقت أن أي عمل حربي يهدد
سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره إنجلترا عملا عدوانيا اعتدائيا موجها نحوها (٢) ،
ولم يهدأ باز إنجلترا ولم تطمئن الا حين علمت أن هذه الأشاعات هي محض
اختلاق (٣) . وفي أثناء الحرب الروسية التركية أعلنت روسيا عن رغبتها في إرضاء
إنجلترا بأنها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة
ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل (٤).

وفي الواقع أن إنجلترا كانت في ذلك الوقت أي في سنة ١٨٧٧ تخاف
عواقب اتباع السياسة التي يقترحها زمرك ، وتخشى بصفة عامة عداوة فرنسا ، لاسيا
وأن الرأي العام الانجليزي كان يعتقد تماما في هذه السنة أن المستشار الألماني غير

(١) Documents Diplomatiques Français ١٧١ دكاز Decazes وزير الخارجية الفرنسية الي لفلو Le Flô سفير فرنسا في
جزء ٢ رقم

بترسبرج ٢١ مايو سنة ١٨٧٧ (٢)

Sumner: Russia and The Balkans ص ٣١١ .

(٣) Seton-Watson, Disraeli and Gladstone ص ١٧٢ ،

و Sumner: Russia and The Balkans صفحات ٣١٠ الي ٣١٢ ، ٦١٨

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٩٣

مخلص في ذلك العرض فدوافعه غير بريئة ، فهو يريد أن يدفع بإنجلترا إلى مصر لكي تؤيده في الاستيلاء علي هولنده ، وحتى للملكة فكتوريا نفسها ، ملكة إنجلترا ، كانت مصدقة للأشاعات التي تملأ الجو السياسي في أوروبا عن رغبة ألمانيا في الاستحواذ علي هولندا ، مما اضطر السفير الألماني في لندن إلى أن يؤكد للحكومة الإنجليزية بأن ما يشاع عن رغبة الألمان في ضم هولندا محض افتراء لا صدق فيه ولا غناء (١).

علي أن المستشار الألماني لم يئأس ولم يكثرث لمثل هذه الأراجيف ، فهو يدون في مذكرة أنشأها في كسنجن Kissingen في صيف سنة ١٨٧٧ لوزارة الخارجية الألمانية : « لقد رغبت في حث الإنجليز علي أخذ مصر إذا كانوا لا يزالون يطمعون فيها ، لآتي أعتقد أن من مصلحتنا ولخير مستقبلنا العمل علي تقابل الإنجليز والروس في منتصف الطريق ، فإذا استطاعت إنجلترا وروسيا الوصول إلى إتفاقية بها تسيطر روسيا علي البحر الأسود وإنجلترا علي مصر كانت ذلك خدمة جليلة للسلام في أوروبا » ، ولكن ما العمل إذا كان الإنجليز لا يرون في أخذ مصر حلا كافيا لمشكلة المصايق ، فملكه إنجلترا ووزراؤها ليست عندهم ذرة ثقة في روسيا (٢).

ثم ان لورد داربي وزير الخارجية في وزارة المحافظين في ذلك الوقت لم يكن بطبيعته ميالا إلى اتباع سياسة خارجية نشيطة ، فهو لم يتحمس حتي لصفقة قناة السويس ، وكانت تنقصه فعلا الإدارة القوية والعزم مما جعل السفير الألماني في لندن يعتقد « أن الساسة البريطانيين يعيشون من يوم إلى يوم ولا يفكرون في المستقبل » ويرى أن علي إنجلترا إذا أرادت المحافظة علي مركزها في أوروبا : أما المحافظة علي

(١) الوثائق الألمانية مذكرة ليزمرك كتبها لوزارة الخارجية الألمانية بتاريخ ١٥ يونيو سنة ١٨٧٧ ، منستر إلى بيلوف ٦ يونيو ١٨٧٧
(٢) الوثائق الألمانية رويس Reuss السفير الألماني في فينا إلى يزمرك ١٠ يوليو ١٨٧٧

الملكات العثمانية بقوة السلاح كما فعلت في حرب القرم أو تقسيم ممتلكاتها ، ونعى عليها موقفاً في ذلك الوقت ، فهو في نظره موقف الضعف والتردد ، اذ لاهى جندت جنودها للدفاع عن تركيا ، ولاهى أنشبت اظفارها في مصر كجزء من الغنيمة (١) .

فروسيا ما برحت مصرة على السيطرة على البحر الاسود فيجب اذن على الانجائز — كما ترى السياسة الخارجية الالمانية — المحافظة على مصالحهم في البحر الابيض المتوسط ولن يصابوا الى هذه الغاية الا باحتلال مصر .

وربما كان هناك رأى في لندن ، ويصح أن يكون بيكون نزييلد نفسه وهو : أن تشتري إنجلترا مصر من الباب العالي ، وأن تعوض السلطان عن الجزية التي تقوم مصر بدفعها سنويا . ولقد أبلغ ديزريل الملكة فكتوريا يوما بأن ليس لدى الباب العالي مانع من بيع سيادته على مصر وكريت وقبرص (٢) . ويظهر ان جلاستون كان علي علم بهذه الحركة وانتقدها انتقادا لاذعا ، كما انتقد شراء ديزريل لاسهم الخديو في قناة السويس من قبل . ولقد انتشرت اشاعات عن هذه الحركة الى درجة أن اضطر رئيس الحكومة الانجليزية الى أن يطعن فرنسا من هذه الناحية (٣) ، واهملت فكرة الشراء اهمالا تاما .

ويعلم الساسة الالمان جد العلم أنه اذا احتلت إنجلترا وادي النيل فيكون لذلك بلا ريب اعماق الاثر وآله في فرنسا ، ولذا فالحكومة الفرنسية لن تتنازل عن مطالبها وعمالها من نفوذ في البحر الابيض المتوسط الا اذا ضمن لها الانجائز زيادة

(١) انظر المصدر السابق ، الي بزمرك ٢٨ يونيو ١٨٧٨ .

(٢) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone صفحات ٣٠٩٤٢٢٥ .

(٣) كان أول من كشف عن هذه الحركة الاستاذ سيتون واطون كشفها في الوثائق الروسية ويذكر ذلك الاستاذ أن اتهامات جلاستون لديزريل غير صحيحة لان زميله في حزب الاحرار لورد جراقتل يعلم جيدا أن ديزريل لم يحاول اجراء صفقة شراء مصر . انظر الكتاب السابق صفحات ٣١٠٤٣٠٩٤٢٢٥

تقودها في بحر الشمال ، وذلك بأن توافق الحكومة البريطانية على ضم بلجيكا لفرنسا وتعويض المانيا بهولندا لحفظ التوازن الدولي في اوربا، وهذا ما لم تكن حكومة لندن تستطيع أن تقبله بأي حال من الأحوال.

ولقد وجد من رجال الدبلوماسية الانجليزية من يعضد وجهة النظر الألمانية . فالسفير الانجليزي في برلين لورد أودو رسل Lord Odo Russell كان يجهد أخذ إنجلترا لمصر ، ويرى في ذلك حلا طبيعيا وسلميا مريحا للمسألة الشرقية ، ولا ريب في أن الرأي العام الانجليزي في سنة ١٨٧٨ كان قد تحول الى تعضيد هذا الرأي وأخذ يحن الى اليوم الذي يري فيه العلم الانجليزي يرفرف على قلعة القاهرة، ويود القيام بأية تضحية للوصول الى هذه الغاية ، وكان فريق من أفراد العائلة المالكة الانجليزية يري من بداية الأمر انتهاز هذه الفرصة ، فرصة اشتغال المسألة الشرقية لامتلاك مصر . فقد كتبت الأميرة ال Crown Princess الى الملكة فكتوريا في ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ رسالة تقول فيها « ان كل من يحب إنجلترا يري اغتنام هذه الفرصة ، فرصة وضع أقدامنا في مصر (١) » . علي ان أودو رسل كان يشكو دائما من انه لا يوجد عضو واحد في الوزارة الانجليزية يأخذ بفكرته او يري قريبا منها ، وذلك خشية عداوة فرنسا .

فلقد كان موقف وادنجتون Waddington وزير الخارجية الفرنسية في ربيع سنة ١٨٧٨ صلبا لا يتغير في هذه المسألة ، فالحجر الأول في أساس سياسته هو منع الانجليز من احتلال مصر بأي ثمن . ولذا فقد أعلن إعلانا لا يشوبه غموض وذلك عند دخوله الوزارة بأنه لن يقبل أبدا احتمال إنجلترا لوادي النيل . وكما يقول السفير الألماني في باريس برنس هوهنلوه Hohenlohe ان جانبا كبيرا من الرأي العام الفرنسي كان يعضد وادنجتون في هذه المسألة بالذات ، ولو ان حملة الأسهم

الفرنسيين ربما كانوا يفضلون احتلال الانجليز لمصر لأنهم يجدون في ذلك الاحتلال خير ضمان لحقوقهم^(١). ولقد اتبع الوزير الفرنسي بدقة السياسة التي أعلنها ولم ينحرف عنها ، فلم يقبل اشتراك الحكومة الفرنسية في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ إلا إذا اقتصر عمل المؤتمر ومناقشاته على معالجة الموقف السياسي الذي نشأ عن معاهدة سان ستافوا بين الباب العالي وروسيا ، وأصر على ضرورة موافقة الدول العظمى على ألا تعرض مسألة مصر وتونس وسوريا على بساط البحث في المؤتمر بأي حال ، وفعلنا وجدت الفكرة موافقة تامة من كل الدول^(٢).

ولكن منسٹر السفير الألماني في لندن ظل يردد الفكرة الألمانية على اسماع لورد بيكونزفيلد ووزرائه ، وخاصة علي وزير الخارجية الجديد لورد سولسبري Lord Salisbury ، لأن منسٹر كان يعلم جد العالم أن الوزير الجديد من أكبر دعاة الامبراطورية فلقد كان وزيراً للشئون الهند له همة ونشاط ليس لسابقة لورد داربي (الذي استقال من الوزارة عقب نزاع شديد ثار بينه وبين رئيس الوزارة) ، له رأيه الخاص في مسألة بقاء الدولة العثمانية ، فهو عديم الثقة بها ميال الى تقسيمها والعمل على انحلالها ، ويرى أن بقائها مهزلة من مهازل السياسة لا ينبغي استمرارها ، ويعتقد أن السياسة البريطانية القديمة في المحافظة على بقاء الدولة العثمانية وكيانها سياسة عديمة المنفعة لا غناء فيها ولا تنفق والوقت وهو يحرص على الاتفاق مع روسيا أكثر مما يميل الى الحرب معها . ولقد كان سولسبري منذ كان وزيراً للشئون الهندية دائم التفكير في المحافظة على مصالح إنجلترا لا بحماية تركيا من الخطر الروسي ، وإنما بالاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة العثمانية

(١) الوثائق الألمانية هوهنبرغ الي برزك ١٥ مارس سنة ١٧٧٨

(٢) الوثائق الألمانية بيلوف الي منسٹر ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، و بيلوف الي هو هنتلوه

١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، ٤ ١ère Série: Documents Diplomatiques Français.

التي تضمن لإنجلترا سلامة امبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الى الهند ، فهو كما يقول لورد ليتون Lord Lytton « ان سياستنا الخارجية تنقصها الجرأة والخطة المرسومة » وأن المحافظة على الطريق الى الهند لا تكون الا بأخذ مصر وكريت والاشراك في القضاء المبرم على تركيا (١).

ولذا، فموضوع مصر من المسائل التي يشوق سولسبري التفكير فيها والمناقشة مع السفير الألماني ، ولكنه حين كان يخلو الى بقية أعضاء الوزارة كان دائماً يجدهم غير ميالين إلى أخذ مصر ، فكما يقول لمنستر إن هناك مسألتين تمنع زملاؤه من التفكير جدياً في مسألة أخذ مصر أولاًها التعقيدات والتضحيات المالية وثانيهما عداوة فرنسا ، ولكن السفير الألماني كان قد تكهن بما يدور في خلد الوزارة الإنجليزية ، ولذا فهو يجيب بأن هذه المصاعب مبالغ في تقديرها دون ريب ، فوارد مصر المالية متى أديرت إدارة حسنة تحت رعاية إنجلترا وتحت اشراف موظفين انجليز فإنها تستطيع القيام بكل التعهدات المالية التي ارتبطت مصر بيا ، وأن الدائنين الفرنسيين يهتمهم قبل كل شيء أن تسدد ديونهم وتدفع فوائدها ، ولا يأبهون كثيراً لذكريات فرنسا التاريخية أو لما تدعيه من أعمال مجيدة في مصر ، ثم ما الذي يجعل الانجليز يظنون أن هدف فرنسا هو مصر ؟ فهدف فرنسا الحقيقي هو تونس لكي تستطيع حماية مصالحها في الجزائر . ثم بعد ذلك ما الذي تستطيعه عداوة فرنسا ؟ فهل تستطيع فرنسا في الوقت الحاضر اعلان الحرب على إنجلترا من أجل مصر ؟

ولما وجد سولسبري عدم اتفاق زملائه في الوزارة على مسألة احتلال مصر اضطر غير راض الى ترك هذا المشروع ، ثم من ناحية ثانية سولسبري نفسه كان دائماً كبير الاهتمام بصدافة فرنسا ، وخاصة في الوقت الذي تخلت فيه ايطاليا عن

مساعدة إنجلترا في المسألة الشرقية ضد روسيا^(١) فسولبري يؤمن بضرورة تعاون الدولتين الغريبتين في كل ما يختص بمسائل البحر الأبيض المتوسط . بل لقد أصبح ذلك التعاون أمرا حيويا بالنسبة لإنجلترا طالما كانت تبغى ألا تنضم فرنسا إلى المعسكر الروسي . ومن الأسباب الأساسية التي جعلت الحكومة الإنجليزية لاتخاذ بالعرض الألماني هو تشككها في سياسة بزمرك ، فكانت تخشى داء أن يكون المستشار الألماني قد عرض مصر على فرنسا لتعويضها عن الأزمات واللورين في نفس الوقت الذي عرضها فيه على إنجلترا .

وظل موقف ألمانيا بالنسبة لإنجلترا في هذه المسألة كما هو ، ظل موقف الصداقة والتأييد ، ولذا حين تعقدت الظروف بعض الشيء بين فرنسا وإنجلترا أعلن بزمرك للسفير الإنجليزي لورد أودورسل بأنه مستعد لتأييد بريطانيا العظمى «لأن من مصلحة ألمانيا أن يتفوق نفوذ إنجلترا على نفوذ فرنسا في مصر» ، وهو مع ذلك ماض في تأييده للتعاون بين الدولتين^(٢) . وحين أرادت الحكومة النموية الحربية استغلال صداقة ألمانيا فطالبت بأن تشارك مع الحكومتين الفرنسية والإنجليزية في الإشراف على شئون مصر أشار إليها بزمرك بأدب بأن مصالح إنجلترا وفرنسا أضعاف مصالح ألمانيا والنمسا ، وأن هذه المصالح تهرق في نظره مركزها المفضل في مصر ونفوذها الممتاز ، وأنه يفضل أن يترك كل إلى إنجلترا وفرنسا أمر حماية مصالح رعاياه في مصر على شرط أن تقوم هاتان الدولتان بحماية مصالح الدول الأخرى على قدم المساواة مع مصالحهما وبنفس الاهتمام^(٣) .

(١) لما استنفذ الخطر الروسي في أوائل سنة ١٨٧٨ فكرت إنجلترا في إنشاء عصبة من دول البحر الأبيض المتوسط تكون غايتها منع امتداد النفوذ الروسي إلى ذلك البحر ، وعرضت الفكرة على إيطاليا فرحبت الحكومة الإيطالية في أول الأمر بالمشروع ثم نكصت على عقبيها
(٢) Winfred Taffs: Ambassador to Bismarck: Lord Odo Russell ص ٣٠٦
(٣) الوثائق الألمانية دكتور بوش Busch في وزارة الخارجية الألمانية إلى ولي عهد ألمانيا ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

ولقد أيد المستشار الألماني إنجلترا وفرنسا تأييدا لا يعتره ضعف في موقفها ضد الخديو اسماعيل في أوائل سنة ١٨٧٩ حين تحدى أوروبا وأراد التخلص من العنصر الاجنبي ، فأرسل إنذارا الى مصر زلزل مركز الخديو، ووافق على فكرة الدولتين الظالمة في طلب عزل الخديو ، بالرغم من أن كلا من روسيا وإيطاليا كان يعترض على حق الدولتين فرنسا وإنجلترا في طلب تخلي الخديو عن عرشه ، فهذا تدخل صريح في شئون مصر لا يتفق والعرف الدولي ، ولكن تأييد بزمرك وعدم اكترائه بما لاسماعيل من حقوق جعل معارضة روسيا وإيطاليا لا قيمة لها ، فغادر اسماعيل مصر حزينا وتولى شئونها توفيق .

وتعمدت المسألة المصرية من الناحية الدولية في أوائل عهد الخديو توفيق ، وأندرت الثورة العراقية بمخطر كبير ، فثبتت ألمانيا على موقفها في أن ليس لها مصالح مهمة في وادي النيل تدعوها للتدخل مباشرة ، وظلت متمسكة برأيها في الاعتراف بمركز إنجلترا وفرنسا الممتاز في مصر (١) ، فكما يقول لورد أودورسل عن بزمرك « إنه (أي بزمرك) راغب في منح تأييده لأي سيامة تتفق عليها إنجلترا وفرنسا في مصر، لأنه يري في الاتفاق الفرنسي الانجليزي أساسا للسلام والنظام في أوروبا، ويرى فوق ذلك أن تنضم ألمانيا إلى جانب ذلك الاتفاق بتأييده وتعضيده» (٢).

وحيث لجأت وزارة الأحرار وعلى رأسها جلادستون إلى ألمانيا لتعرف موقفها إزاء الثورة العراقية كان رد بزمرك بأن إنجلترا أعلم بما يجب أن يكون عليه موقفها إزاء ذلك التعقيد الجديد في المسألة المصرية ، ولكنه يبين في نفس الوقت أن سياسته كسياسة إنجلترا ، فمن مصلحة الدول جميعا كما يعرف هو المحافظة على الموقف السياسي الراهن في مصر وتعزيد سلطة الخديو .

(١) نفس المصدر بزمرك الي رادوفيتس Radowitz ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩

(٢) رسل الي جرانفل ٢٩ ابريل ١٨٨٢

فبين جرانفل وزير الخارجية الإنجليزية أن الحالة في مصر خطيرة ، فوقفا لتفارير قنصل إنجلترا الجبرال في القاهرة الخديو جد متشائم من سير الأمور الداخلية وأنه يائس جدا من استقامة الأحوال ، ولذا فالحكومة الإنجليزية مصممة على تقوية مركزه وشد أزره بأن تعلن الدول الكبرى في صراحة وجلاء تام عن رغبتها في المحافظة على الحالة السياسية الموجودة ، ولذا فقد أصدرت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية إلى قنصليهما الجبرالين في مصر بأن يبينا للخديو عن هذه الرغبة بمذكرة يناير المشهورة . وذكر جرانفل أن فرنسا قد تعاونت مخلصا مع إنجلترا في هذه المسألة ، ولما وضح حربرت زمرك أن ألمانيا لن تعترض علي ما حدث ، ولكنها ترغب في أن يوكل الى الأتراك أصحاب السيادة في مصر أمر المحافظة على النظام (١) أجاب جرانفل إجابة قلقه مضطربة تدل علي أحد شيئين : إما أنه يريد اخفاء خطة استنها إنجلترا ، واما ان الوزارة الإنجليزية لا تزال غير متفقة فيما بينها على السياسة التي يجب اتخاذها حيال مسألة مصر . ولذا فهو يردد بأنه ما بقيه يعتقد أن إعادة النظام الى مصر على يد الأتراك هو خير الحلول الممكنة وأنه شر لا بد منه ، على أن جرانفل لم ينس أن يذكر لابن زمرك ومبعوثه في لندن بأن ما صرح به هو رأيه الشخصي ، وأنه لا يزال لا يدري إذا كان اخوانه في الوزارة يشاطرونه هذا الرأي ، ثم أضاف بأن قيام إنجلترا بعمل وحدها في وادي النيل هو ضرب من المحال ، وان من المعامرة تعاون فرنسا وإنجلترا في القيام بعمل وحدهما ، وأن ترك

(١) وكان الاتراك عقب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ قد لجأوا الى ألمانيا ابتغاء النصح والحماية وقبلت برلين ذلك الود بمثله وأجابت بعض طلبات الأتراك الخاصة بأرسال بعض المواطنين الألمان الى الاستانة ممدتا الي تخوف السفير الإنجليزي فكتب الى جرانفل يقول : It is evident that the exchange of compliments, of presents, of diamonds and of assurances, of mutual respect and admiration has practically led to a state of real intimacy between Germany and Turkey which has never before existed and which gives the Sultan a welcome excuse for leaving his ways unmeddled. » March 22, 1882. F.O. 64. 1005. No. 102 عن Taff: An Ambassador to Bismarck

الأتراك يتدخلون وحدهم لحفظ النظام والأمن في مصر قد يؤدي الى صعوبة التخلص منهم فيما بعد ، ولكن ميزة تدخل الأتراك وحدهم هو عدم وقوع التشاحن بين الدول الأوروبية الكبرى من جراء مسألة مصر (١).

ولقد لاحظ المبعوث الألماني هربرت بزمرك تضارب أقوال جرائق مما لا يدشر في نظره باستقرار الحكومة الإنجليزية على رأي في مسألة مصر ، فهي حاقة غاضبة على الباب العالي لعدم قيامه بتنفيذ شروط معاهدة برلين كما يجب ، وهي في حيرة من أمرها فيما يختص بمصر . علي أن ما كان يخشاه جرائق قبل كل شيء ، هو أن تصبح مسألة مصر مسألة دولية ، هو تدخل الدول الكبرى في مسألة مصر ، ولذا فهو يبين لألمانيا أن مثل ذلك التدخل ليس من صالح السلام في أوروبا .

ولما كانت الحكومة الإنجليزية ترى من المهم أن تتعاون فرنسا معها في مسألة مصر ، هذا قوى من فكرة المستشار الألماني بأن سياسة إنجلترا الخارجية لا يزال ينقصها الحكمة وبعد النظر « بدرجة لا يوجد لها مثل في تاريخ إنجلترا » فالإنجلترا كما يرى أصبحت مقيدة بسياسة فرنسا الخارجية فهي لا تفكر إلا في التعاون مع فرنسا وإلا في صداقة فرنسا ، وهاله أن يرى « وزارة جلادستون تدفع من معارمة لأخرى » ، فاذا كانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة الفرنسية علي أن تكونا في عزلة عن بقية دول أوروبا بتدخلها وحدها في مسألة مصر ، فان علاقات بريطانيا العظمى مع الدول الأوروبية الأخرى التي لها مصالح في الشرق لا بد وأن تتأثر تأثيرا سيئا « وخاصة إذا حدث « وساءت علاقة إنجلترا بفرنسا لتباين مصالحهما » ، ولذا في آخر الأمر « فان إنجلترا ستجد نفسها وحيدة متفردة في أوروبا نتيجة لسياستها الخائرة المترددة » (٢)

(١) الوثائق الألمانية هربرت بزمرك الي بزمرك ٧ يناير سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر هاتسفلت Hatzfeldt في برلين الي روس Reuss السفير الألماني

في فينا ١٥ يناير سنة ١٨٨٢

وما كان بزمرك يثق في حسن فهم جلاستون لشئون السياسة الخارجية ، وما كان يستطيع أن يهيم وزنا كبيرا لتصریحات جراتقل أو لآرائه الشخصية نظرا لضعفه وتردده وقلة حيلته ، كما كان الشك يساوره دائما في سياسة جمتبا الفرنسية ولذا فهو في سياسته العامة الأوربية معتمد على الدول الامبراطورية النمساوية المجرية والروسية . أما في مسألة مصر فهو لم يجد عن سياسته التقليدية التي تنطوي على عدم إثارة العراقيل في وجه السياسة الانجليزية وإن كان لا يروق أن يرى الحكومة الانجليزية تتبع ظل الحكومة الفرنسية .

ولكنه كان حريصا وخاصة بعد سقوط وزارة جمتبا الفرنسية في أول شهر فبراير سنة ١٨٨٢ على أن يؤيد الخطوات التي تقوم بها الدولتان الغريبتان على شرط أن تجوز هذه الخطوات موافقة ، وإن كان يفضل المحافظة على الحالة السياسية الراهنة في مصر ، وكان يعضده في وجهة النظر هذه الدول الشمالية الروسية والنمسا ، فهو لذلك ينصح بتدخل السلطان وحده ، ولكنه بين مع ذلك أنه لن يعارض إذا تدخلت الدول الأوربية الكبرى جميعها متعاونة ، وأسرالى الانجليز في نفس الوقت بأنه سيحاول ارضاءهم بقدر المستطاع على الرغم من ارتباطه بالدول الشمالية ، ولذا يبعث لورد أودو رسل السفير الانجليزي في برلين بوثيقة سرية الى حكومته مؤرخة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢ يقول فيها :

Dr. Busch has told me (privately and confidentially) that although Prince Bismarck had not felt at liberty to separate himself officially and depart from the attitude assumed by Count Kalnoky and m. de Giers in regard to sending instructions to their representatives at Constantinople, His Highness has nevertheless instructed him to speak privately to the Turkish Ambassador Sa-doullah Pasha in the sense desired by your Lordship and that he had already done so, and recommended him to advise his Government not to exaggerate the effect of the naval demonstration but

to abstain from interference and confide implicitly in the policy and good intentions of England and France». (١).

ولقد أطلع بزمرك حلفاءه علي وجهة النظر هذه ، وأيد إبحار أسطول الدولتين للمحافظة علي الأمن والنظام وتعزيد سلطة الخديو علي حسب القرامانات التي اعترفت بها دول أوروبا (٢).

ولم يكن بزمرك مرتاحا الي رغبة الحكومة الانجليزية في أن تطلب من الباب العالي إرسال جنوده الي مصر لاعادة الهدوء اليها ، فلم يكن يعضد فكرة اصدار الدول أوامرها للحكومة العثمانية ، فهو يرى في ذلك انتقاصا كبيرا من حقوقها ، وتحديد اسلطتها لامبر له ، ولقد أبدى السفير الانجليزي في برلين أسفه لذلك الموقف من جانب الحكومة الألمانية ، ذلك الموقف الذي ربما سبب كثيرا من المتاعب لما لألمانيا من كلمة مسموعة لدي كثير من الدول الأخرى . ولقد أجاب حاتسفلت علي ذلك ، وكان قائما بأمر وزارة الخارجية الألمانية بأن فرنسا لا تؤيد إنجلترا في مطلبها الخاص بأرسال الباب العالي لجنوده الي مصر ، وأسر الي السفير الانجليزي بأن بزمرك لن يقبل الاشتراك مع إنجلترا في الانتقاص من حقوق السلطان أو من سيادته ، ويرى أن الحل الوحيد للصعوبة الحالية هو ترك السلطان يفصل فيها بطريقة الخاصة ، فالأترك لهم وسائل ناجعة في تسوية مثل هذه المشاكل :

«The Turks had a way of their own of pacifying their co-religionists; they gave their agents a sword in one hand, and a bag full of decorations in the other, money in every pocket and told

(١) F.O. 64. 1006. No. 169. عن Taffs: Ambassador to Bismark صفحات ٣١٠ ، ٣١ . دكتور بوش من كبار موظفي وزارة الخارجية الالمانية . كونت كالنكي وزير خارجية الامبراطورية النمساوية المجرية ، ميو دي جرز وزير الخارجية الروسية — الظاهرة البحرية هي الظاهرة التي قامت بها إنجلترا وفرنسا في ميناء الاسكندرية

(٢) نشر الكتاب . رسل الي جرائل ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ص

them to make the best of their chances». (I)

ولما سأل رسل السفير الإنجليزي عن الوسائل التي يمكن التخلص من الأتراك بعد ذلك أجاب هاتسفلت بأن هذه المسألة متروكة للمستقبل ، وأن قنصل روسيا والمانيا والنمسا وإيطاليا قد سجلوا في تقاريرهم أن هذه الطريقة هي خير الطرق التي يجب الأخذ بها لحل المشكلة المصرية ، لأن التدخل الحربي حتي ولو كان عثمانيا سيؤدي في آخر الأمر الى كوارث ، وأضاف الى ذلك قائلا: ان كل ما يهم المانيا هو السلام وعدم وقوع حرب من أجل مصر «وان البرنس بزمرك يكون سعيدا لو استطاع قرض يديه من كل المسائل الشرقية ، ولكنه كعضو في التآلف الأوربي مضطر لتأييد الدول التي يهملها ذلك الموضوع في الوقت الذي تجد نفسها متفقة فيه ، فسياسته هي عدم توسيع شقة الخلاف بين الدولتين إنجلترا وفرنسا، وإنما هي العمل دائما علي تعاونها والتوفيق بينهما لأنه يري السلام والمصلحة في ذلك» .

«Prince Bismarck had always agreed that a difference of opinion with regard to Egypt was inevitable and his earnest desire was not to foster such differences when they sprang up, but on the contrary to contribute as far as was in his power towards the continuance of the Anglo-French alliance which he has always welcomed as a guarantee of peace in Europe». (2)

وعلي أي حال قبل بزمرك الاشتراك في مؤتمر الآستانة الذي انعقد من الدول الكبرى لمناقشة المسألة المصرية ومعالجتها ، ولو أنه كان لا يؤمن كثيرا باستطاعة المؤتمرات حل المشاكل الدولية ما لم تتفق الدول صاحبة الشأن علي حل هذه المشاكل من قبل . ولذا لم يكن كبير الأمل في نجاح ذلك المؤتمر . وجدت الحكومة الألمانية أن فرنسا لم تكن بكبيرة الرغبة في نجاح ذلك المؤتمر لأن فكرته الأساسية لم تلتق

(١) نفس الكتاب صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الي جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

(٢) نفس الكتاب السابق صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الي جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

ترحيبا في باريس ، فالحكومة الفرنسية كانت عاقدة العزم علي مناهضة كل مبدأ يقول بتدخل الأتراك الحربى في مصر خشية ازدياد قوة الاسلام في شمالى افريقية الأمر الذي يعمل دون شك علي اضعاف مركزها في الجزائر وفي البحر الأبيض المتوسط . وأيقنت ألمانيا أن المؤتمر سيفشل في خطواته نهائيا لأنها (أي ألمانيا) لم تكن مستعدة لانتداب الدولتين الغريبتين إنجلترا وفرنسا لحل مسألة مصر وانتفاص ما للسلطان من حقوق في هذه البلاد ، وان لم تكن تعارض في قيام الدولتين إذا أرادتا — بأرجاع النظام الي مصر على مسئوليتها الخاصة ، فألمانيا لم تردأخذ دور إيجابي في المسألة المصرية ، وكانت ترى أن إرسال الدولتين لأسطوليهما الي مياه الاسكندرية كان سببا في حدوث المذبحة المشهورة وفي اثاره العسكrien المصريين إلى اقامة التحصينات والى الاستعداد للحرب ، ولكن ألمانيا بالرغم من ذلك لم تقم بإثارة عراقيل في وجه الانجليز ، ولم تقتصر على ذلك بل لقد عملت علي الوقوف أمام محاولة روسيا تكوين حلف من بعض دول أوروبا للاحتجاج على سلوك إنجلترا في مصر ، وذلك بعد ضرب الانجليز لمدينة الاسكندرية وهنأت ألمانيا الحكومة الانجليزية علي نجاح العمليات الحربية ، ولما احتلت إنجلترا قناة السويس فأثارت جانبا من الرأي العالمى ضدها كان موقف ألمانيا الصريح في تأييد إنجلترا عاملا على تهدئة الخواطر في أوروبا نحو بريطانيا وخفت صوت المحتجين . ولما كانت مصالح ألمانيا في قناة السويس تجارية قبل كل شيء ، وليست سياسية لم تعارض السياسة الانجليزية وان كانت لم توافق علي طلب الحكومة الانجليزية بالاشتراك معها في ضمان حرية الملاحة في القناة . ولم تناصر ألمانيا الجهود التي قامت بها بعض الدول الكبرى لتطلب من إنجلترا تفسير أعمالها وتوضيح موقفها ، بل اقتضت علي إرسال هربرت زمرك الي لندن ليقف علي سياسة إنجلترا الجديدة إزاء المسألة المصرية ، ودعا القيصر الألماني والقيصر الألمانية السفير الانجليزي لورد أودو رسل الي وليمة فاخرة تهنئته

على النجاح العظيم الذي صادفته حكومته . ولم يخف السفير الانجليزي من ناحيته سروره ، فبعث بدوره بهيئة حكومته بسياستها «القوية» الوطنية القومية التي نالت تقدير الانيا .

ولما جاء أمر تنظيم إنجلترا لشئون مصر أعلن بزمرك للورد جرنيل ان الحكومة الألمانية لن تثير صعوبات او متاعب أمام إنجلترا في هذه الناحية . ولما ثارت المناقشة بعد ذلك في أمر مصير مصر ساء بزمرك أن يجد الوزراء الانجليز غير متفقين فيما بينهم على السياسة التي يجب أن تتبع ، مضطربا الأعصاب فلتين كلما ذكرت دولة أجنبية اسم مصر . ولكن المستشار الألماني ظل علي ولائه لسياسته القديمة التقليدية ، ولم يخف أمام الحكومة الانجليزية المترددة أنه علي استعداد لئن يذهب في تأييدها الى حد ضم مصر الى الملكات البريطانية إذا أرادت ذلك ، وأن كان ينصح بأن من الخير لهم أي الانجليز لو وطدوا أقدامهم في مصر تحت سيادة تركيا ، وبذا لا يضعف مركز السلطان في العلم الاسلامي ولا ينال تركيا الهزال والانحلال ، وبذا لا تجعل إنجلترا من السلطان عدوا امينا لها فتفتح الباب واسعا أمام دسائس الدول الأوربية المعادية لها ، أما اذا اتبعت إنجلترا سياستها التقليدية القديمة ، سياسة التحالف مع الباب العالي فانها تعزز مركزها في مصر وتركيا ، وتحكم مصر من القاهرة والآستانة معا ، ويكون انتفاعها أكبر ، بل سيكون هذا عاملا علي تيسير الأمور لبريطانيا في البحر الأبيض المتوسط . ولعل بزمرك كان يري من وراء ذلك عدم اعطاء روسيا فرصة للاتفاق مع فرنسا على محاربة نفوذ إنجلترا في مصر والشرق الأدنى ، كما انه لم يكن يري الي تمهيد الطريق أمام الباب العالي للانضمام الى جانب فرنسا .

اقترح المستشار الألماني إذن ابقاء مصر تحت السيادة العثمانية ، ولكنه اقترح بجانب ذلك أن يجعل الانجليز من وظيفة قنصلهم الجبرال في مصر وظيفة مشابهة

لوظيفة المقيم العام الفرنسي في تونس ولعل بزمرك كان ينبغي أن يعرف من وراء ذلك الاقتراح مدى رغبة الانجليز في التسلط على الأمور في مصر ومدى محاسنهم للوسائل الفرنسية في الحكم الامبراطوري ، ووافق وزير الخارجية الانجليزي جرافل على الفكرة الاولى باقواء مصر تحت السيادة العثمانية فالفكرة وجدت هوى في نفسه لانها صادرة من ألمانيا ولن تستطيع إنجلترا القضاء على السيادة العثمانية دون الاستهداف لخطر غضب ألمانيا وسخط الدول الأخرى ، وكانت تركيا في ذلك الوقت قد نجحت في التقرب من ألمانيا الى حد أن المستشار الألماني قد وافق على ارسال بعثة ألمانية حربية الى الآستانة لتنظيم الجيش العثماني ، فالقضاء على السيادة العثمانية سيثير لانجلترا في مصر مشاكل لاعداد لها »

ولكن جرافل اعترض على الفكرة الألمانية الثانية بجعل وظيفة ممثل إنجلترا في مصر ممثلة لوظيفة المقيم الفرنسي في تونس وقال « بأن إنجلترا لن تذهب الى هذا الحد ولن تستطيع تطبيق وسائل فرنسا في تونس على مصر وقناة السويس » (١) ولم يبين جرافل أى نظام ستبغ إنجلترا في مصر ! ولكنه ذكر أن إنجلترا ستجعل المرور في قناة السويس حرا لجميع الدول في وقت السلم والحرب وأنها « لن تفرض نظام الحماية على مصر » . ولعل الوزير الانجليزي أراد أن يثبت للألمان حسن نية الحكومة الانجليزية فهي غير مستعدة للامعان في استثمار مصر فهي لن تعمل على استغلال هذه البلاد لصالحها ولن تعمل على الاستئثار بالسلطة فيها . ولكن جرافل أحب أن يتحسس رأى بزمرك في أمر مصير مصر فقال المستشار الألماني « إنه ترك أبدى الانجليز حرة في وادي النيل » يفعلون فيه ما شاءوا .

ولما أشار جرافل الى موقف فرنسا العدائي ومناهضتها لسياسة إنجلترا مما قد يكون له خطر على مركز الانجليز ، كان بزمرك يهون من خطر ذلك الموقف ،

(١) الوثائق الألمانية مذكرة سياسة لهربرت بزمرك (في لندن) اكتوبر سنة ١٨٨٢

ويذكر الحكومة الانجليزية بأنه طالما كانت ألمانيا قوية ومهيبة الجانب ، وطالما كانت صديقة لإنجلترا فلن تستطيع الجمهورية الفرنسية التحرش جدياً بإنجلترا ، ولن تستطيع الذهاب الى حد إعلان الحرب عليها ، فدستورها وحالتها الحربية لا يسمحان لهما بذلك وخاصة وأن ألمانيا واقعة بالمرصاد ورفيق جبار عتيد على حرركاتها .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تتقرب من ألمانيا في مسألة تقرير حرية المرور في القناة ، لأن هذا هو كل ما يهتم ألمانيا في نظر إنجلترا ، وطلبت كذلك اشتراك ألمانيا في ضمان حرية الملاحة في هذه القناة ، ولكن المستشار الألماني ما كان يريد التورط في مسألة مصر أو القناة ، فبين لإنجلترا أن ألمانيا كدولة تجارية ترحب بلاشك بحرية المرور في القناة ، ولكنها غير مستعدة للذهاب الى حد قبول الاشتراك في ذلك الضمان لأنه ربما اعترضت على هذا المبدأ إحدى الدول البحرية الكبرى ، وألمانيا غير مستعدة للدخول في حرب من أجل مصر أو القناة. (١)

وقد ردت إنجلترا حق التقدير موقف التأيد العظيم الذي وقفته ألمانيا في المسألة المصرية أبان أشد أزمتها ، فشكر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الألمانية ، وكرر ملاحظته ذلك الشكر أكثر من مرة فلقد أعلن هاركورت Harcourt أحد الوزراء الانجليز « بأنه الى ألمانيا وحدها يرجع الفضل في جعل يد إنجلترا حرة في مصر ، فاقد كان في وسع بزمرك أن يقلب العربة بإنجلترا ». (٢)

ولقد ظل موقف ألمانيا في سنة ١٨٨٣ واحدا لا يتغير ، ولكن الظروف السياسية تغيرت تغيرا تاما واضحا في سنة ١٨٨٤ . ففي هذه السنة تمت الجمعية الاستعمارية الألمانية وتأسست الصحيفة الاستعمارية Kolonial Zeitung .

(١) نفس المصدر السابق شتوم Stum قائم بالأعمال في لندن الى هيربرت بزمرك ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ ، هيربرت بزمرك الى شتوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢ .
(٢) نفس المصدر السابق هيربرت بزمرك الى بزمرك ١٤ يناير سنة ١٨٨٣ .

لم تكن للدولة الألمانية سياسته استعمارية في السنوات التي سبقت هذه السنة، فلقد كان بزمرك راغبا عن الاستعمار، ويرى أن الوقت غير مناسب، وأن جهود ألمانيا السياسية يجب أن توجه الى توطيد دعائم وحدتها السياسية والى بناء مركز متموق لها في أوروبا. كان يرى أن نشاط ألمانيا يجب أن يتركز في أوروبا، وعلى حدودها الغربية بصفة خاصة طالما لم تنس الحكومات الفرنسية الرغبة في الانتقام واسترداد الولاياتين المفقودتين الألزاس واللورين، واطمأن الى مركز ألمانيا في أوروبا بعد توطيد علاقته مع امبراطورية النمسا والمجر نهائيا في سنة ١٨٧٩، ومع روسيا في ربيع سنة ١٨٨١، ومع إيطاليا في ربيع السنة التالية، فلاخوف إذن على تفوق الدولة الألمانية في أوروبا.

فظهر حينئذ عامل جديد في السياسة الألمانية الخارجية، وخاصة بعد أن نمت الصناعية الألمانية وأخذ الانتاج الكبير يلعب دوره، وتبع تقدم الصناعة والتجارة بسرعة هائلة، وظهر تجار من برلين وهمبرج على شواطئ افريقية والمحيط الهادي، وانتشرت البعثات الدينية الألمانية في أرجاء العالم، وزاد الحماس واشتد التمسك بالقومية الألمانية بعد انتصارها الباهرة في سادوا وسيدان. وبعد تفوقها السياسي في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، فالاعتزاز بالقومية الألمانية كان من العوامل التي دفعت الالمان الى الاستعمار، وتفوق ألمانيا من الناحية السياسية في سنة ١٨٨٢ هو الذي جعل بزمرك يعيد النظر في موقفه ازاء الامبريализم، ووجد التجار الالمان من الشجاعة والمصلحة أن يستقروا في المحطات التي أنشأوها في جنوب افريقية والمحيط الهادي، وأصبح المستشار يجد ألاغني لألمانيا عن الاستعمار، وازداد اهتمامه به حتى اعتبره مسألة حيوية بالنسبة لألمانيا، ولذا كان على قدم الاستعداد لأن يجعل من مسألة الاستعمار محكا لعلاقته بالدول الأوربية الكبرى لاسيما الاستعمارية منها، ولذا فهو مستعد لتضحية علاقته الودية بانجلترا اذا قاومت مشاريعه الاستعمارية، وهذا يفسر لنا موقفه ازاء انجلترا في مصر في سنة ١٨٨٤.

لقد خشى الانجليز أن تفكر ألمانيا تفكيراً جديداً في الاستعمار ، وحالها تقدم
التجار الألمان والبعثات الدينية الألمانية ، وأصبحت ترمى في الألمان منافساً خطيراً
قويًا ، فأخذت وزارة جلاستون التي لا زالت تتولى الحكم في إنجلترا في أوائل
هذه السنة في وضع العراقيل أمام المستعمرين الألمان في غربي إفريقيا وفي جزائر
فيجي وساموا ، وهاجمت الصحافة الانجليزية بنفس السياسة الألمانية الاستعمارية ،
فثارت لذلك نائرة الامبرياليين من الألمان ، بل حاج الرأي العام الألماني ، وأخذت
الصحافة الألمانية تهاجم في مقالات قوية السياسة الانجليزية والصحافة الانجليزية ،
وغضب بزمرك غضباً شديداً ، واتخذ من مسألة مصر ذريعة يتهدد بها إنجلترا .

وبعث الى منستر سفيره في لندن في ٤ ابريل سنة ١٨٤٤ يطلب منه أن يذكر
الانجليز بموقف ألمانيا نحوهم في مسألة مصر في سنة ١٨٨٢ ، وأن يبين لهم كيف
لم تخرج ألمانيا على ضرب الاسطول الانجليزي مدينة الاسكندرية ، وكيف لم تتف
الحكومة الألمانية حجرة عثرة في سبيل احتلالهم لمصر ، وكيف لم تناقش مراكز
إنجلترا الممتازة في وادي النيل والشرق الأدنى الاسلامي ، وكيف لم تترصعوبات
أمام ما اتخذته الحكومة الانجليزية في مصر من خطط ، وكيف أن الحكومة
الانجليزية شكرت الحكومة الألمانية شكراً جاعاً على موقف التأييد هذا المنقطع النظير .

ولذا فألمانيا لها الحق الآن في أن تنتظر رد الجليل ، وفي أن تنتظر من الانجليز
ألا يتقوا حائلاً أمام حقوق الرعايا الألمان في فيجي ، ولوح بزمرك بالوعيد والتهديد
إذا عرفت إنجلترا بتحقيق المطامع الألمانية ، فان الحكومة الألمانية ستدرس موقفها
من جديد ازاء وزارة جلاستون وخاصة ازاء السياسة الانجليزية في مصر . (١)

ولقد ذكر بزمرك الانجليز بمركزهم للزعزعة في أوروبا ، وبين لهم ألا يخوف
على إنجلترا في هذه القارة الا من فرنسا ، وفي آسيا الا من روسيا . ولن يكون

(١) الوثائق الألمانية بزمرك الى منستر : ابريل سنة ١٨٨٤ .

عداء فرنسا ذا قيمة أو خطرا على إنجلترا الا اذا ضمنت فرنسا حياد المانيا ، وإن الحكومة الالمانية مستعدة من ناحيتها للثبات على سياستها الودية حيال إنجلترا في مصر ، كما أنه ليس من الصعب على المانيا أن تحسن علاقاتها باعداء إنجلترا (١) ، وأن إنجلترا يجب أن توفق بانها لن تستطيع الاعتماد على صداقة الحكومة الألمانية أو حيادها أو تأييدها في حالة اعتداء فرنسا أو روسيا الا اذا أرضت الطامع الألمانية كاملة .

ومضى بزمرك يعلن للانجليز بأنهم اذا ناقشوا حق المانيا في الاستعمار فان من حق المانيا أن تناقش إنجلترا في حقها في مصر ، ونمت سياسة إنجلترا بأنها سياسة أنانية « naïve egoism » ، وقال اذا استمرت الحكومة الانجليزية سادرة في غلوائها كان ذلك « أمهانا لشعورنا القومي » ، وانتقد تصرفات وزارة جلاستون وعملها على اثارة المستعمرات الانجليزية في افريقية على السياسة الألمانية ، وبين أن إنجلترا تتمحل الأعذار لكي تُري أن المعارضة لم تأت من جانبها ، ولكن من جانب برلمانات المستعمرات ، وقال ان استقلال المستعمرات في تدبير شئونها الخارجية مهزلة لا تصدق .

وكانت المسألة في نظره جد خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات القادمة في المانيا تحتم عليه أن يبين رأى الحكومة صراحة في الاستعمار اذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألماني لها .

ولما ثارت مسألة مصر من جديد ، وخاصة حين لم تصل المفاوضات الانجليزية الفرنسية بشأن الاصلاح المالي الى نجاح أيدت للمانيا بحماس وجهة النظر الفرنسية ، وأكد هربرت بزمرك مبعوث المستشار الألماني في لندن لوزير الخارجية الفرنسية بأن لألمانيا مصالح مالية مهمة في مصر تصل الى مائة مليون مارك ، وحين أبدى جرافل دهشته من

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الي مفتر ٥ مايو سنة ١٨٨٤

هذه الملاحظة وقال ان الحكومة الالمانية قد قررت منذ زمن قريب بأن ليس لها مصالح مهمة في مصر أجاب المبعوث الألماني بأن الأوقات قد تغيرت ، وأخذت الصحافة الالمانية تنتقد بشدة سياسة إنجلترا في مصر ، وتدحض ما تدعيه إنجلترا من حقوق في هذه البلاد وفي احتلالها ، وكان بزمرك نفسه يمد الصحافة الألمانية بالمقالات العنيفة ضد إنجلترا . (١)

وكان موقف بزمرك في مسألة مصر داعيا لأن تعيد الحكومة الانجليزية التفكير في موقفها ازاء الاستعمار الالمانى ، وكما يظهر لم يكن كل اعضاء الوزارة الانجليزية يشاركون جرائل رأيه في عرقلة المشاريع الألمانية . ومن بين هؤلاء شخصية فذة سيكون لها أثر عظيم في توجيه الاستعمار الانجليزي وجهته للعاصرة . وهى شخصية جوزف تشمبرلن Joseph Chamberlain . نبغ تشمبرلن في وزارة الاحرار وأصبح له فيها نفوذ كبير بالرغم من أن الوزارة التى كان يتولى شئونها ، وهى وزارة التجارة ، لم تكن وزارة كبيرة ، لم يكن تشمبرلن في ذلك الوقت يكبير الحب لفرنسا ، وكان من القائلين بشراء الصداقة الالمانية ، وكان يعضده في ذلك إراى لورد هارتنجتن Hartington وسير تشارلز ديلك والبرنس أوف ويلز ولى عهد إنجلترا .

على أنه في هذه الاثناء مات لورد أمهيل ' Amphill (لورد أودو رسل) وكان سفيرا لانجلترا في برلين مدة سنوات عديدة عمل فيها على توثيق الصلات بين المانيا وانجلترا ، فكان لموته أثر سىء على العلاقات الانجليزية الالمانية فلقد ، عرضت الحكومة الانجليزية تعيين سير روبرت مورير Sir Robert Morier خلفا له فرفض بزمرك لأنه لم ترقه شخصية هذا الرجل ولا آراؤه السياسية ، فأسرعت الى تعيين سير ادوارد مالت Sir Edward Malet قنصلها الجنرال السابق في مصر

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١٦ يونيو ١٨٨٤

سفيرا لها في برلين وهو رجل يبرز في الناحية الدبلوماسية . وفي هذه الاثناء أيضا كان بزمرك قد هدد إنجلترا بأنه اذا استمرت الحكومة الانجليزية في موقفها العدائي بأزاء المشاريع الالمانية الاستعمارية فسيقطع نهائيا الصلات الطيبة معها ، وسيعمل على التقريب ما بين وجهات النظر الالمانية والفرنسية ، وعمل فعلا على اثارة صعوبات لا يستهان بها أمام إنجلترا في مصر وخاصة في صندوق الدين (١) بل وذكّر حكومة جلادستون بلهجة حاسمة بضرورة احترام المساهدات التي عقبتها مصر قبل الاحتلال مع الدول الأوروبية وكانت إنجلترا قد فكرت فعلا في تغيير بعضها. (٢)

فلا عجب إذن اذا رأته وزارة جلادستون أن تطأطئ الرأس أمام المانيا ، وكان جرافل وزير الخارجية الانجليزية في نظر الالمان قد كبر سنه وفقد ذاكرته واضمحلّت أعصابه ، وكان هو ووزير المستعمرات لورد داربي مصدر قلق كبير لألمانيا « فلورد داربي شخصية لا يمكن الاعتماد عليها كثير الشك يرى مصيدة في كل شيء » (٣)

تراجعت الحكومة البريطانية حين وجدت أن الأمور تخرجت عليها في مصر نتيجة لموقف المانيا ، وظهر ذلك التراجع في التصريحات التي أدلى بها سير تشالز ديلك لهربرت بزمرك المبعوث الألماني في لندن ، فلقد حمل ديلك بعنف على سياسة جرافل نحو المانيا ، ونعى عليه اضطرابه في سياسته واعوجاجه وقصر نظره في المسائل الاستعمارية ، وأن من حق الحكومة الالمانية أن تحتج على سلوكه القبيح . وأن الخطأ بلا ريب هو خطأ إنجلترا . فقرر هربرت بزمرك أن الصحف الانجليزية أيا كان نوعها الحزبي قد هاجمت المانيا ، وحاولت إفساد العلاقات الألمانية الفرنسية ،

(١) الوثائق الالمانية الى هربرت بزمرك ٩ يوليو سنة ١٨٨٤

(٢) نفس المصدر مذكرة ولیم بزمرك المياسية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤

(٣) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١ أكتوبر سنة ١٨٨٤

وأن إنجلترا يجب أن تعرف أن المنازعات بين ألمانيا وفرنسا ليست قيّداً في أرجل ألمانيا تستغله الدول الأخرى ، وأن لورد جرانفل «قد قدر صداقة ألمانيا لإنجلترا كصداقة الدمارك أو اليونان» ، وأنه لعله الآن يعرف من التجارب مدى قوة ألمانيا وقوة صداقتها حين تعقدت أمور مصر .

حينئذ كرر دياك اعتذاره وقال إن سياسته كانت ولا تزال دائماً التعاون التام مع ألمانيا «فأنكم لن تذهبوا إلى حد إعلان الحرب علينا من أجل مصر، ولكن فرنسا قد تفعل ذلك... وما يجب علينا أن ننظر إليه دائماً هو موقف فرنسا نحو الأعمال التي نجد أنفسنا مضطرين إلى إنجازها في مصر...» (١)

كان بزمرك لا يرى في مسألة مصر أمراً حيويّاً بالنسبة لألمانيا وأن المسألة الاستعمارية مسألة حيوية بالنسبة لها، لارضاء المستعمرين الألمان من ناحية ولإستصلاح الرأى العام الألماني من ناحية أخرى، ولإتصال مسألة الإستعمار بموقف الحكومة الداخلى، وكان يعلم ان الموقف الذي وقفه في مسألة مصر كان نتيجة طبيعية لموقف إنجلترا أمام أمانى ألمانيا الاستعمارية ، فكما يقول «إن أقل ركن في غينيا الجديدة أو أفريقيا الغربية حتى ولو لم تكن له قيمة في ذاته هو أهم في نظرنا وفي سياستنا من كل مصر ومستجلبها» (٢) فالرأى العام الألماني لا يهتم بأمور مصر ، والمستعمرون الألمان قد وجبوا عنايتهم الى مناطق بكر جديدة ولم تكن مصر واحدة منها ، فصر في نظرهم مثقال بالديون قد وقفت مواردها على خدمة أصحاب الديون من الفرنسيين والإنجليز .

ولقد اتهم المستشار الألماني إنجلترا بالعمل على إيقاع التشاحن بينه وبين فرنسا وروسيا، فأنجلترا كما يقول تعمل على إثارة الامور في أوربا ضد ألمانيا حتى تستطيع أن تنفذ بنجاح تام سياستها الاستعمارية في مصر وفي أفريقيا والشرق . ولذا حين

(١) نفس المصدر مذكرة لهربرت بزمرك ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤

(٢) الوثائق الألمانية بزمرك الى منستر ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

خطب جرافل في البرلمان الانجليزي في ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٥ وأراد أن يورط المانيا أمام الرأي العام الانجليزي بأن قرر أن المانيا تعطف دائماً على مركز انجلترا في مصر وتؤيدها في سياستها تأييداً تاماً ، صحح برمك موقف المانيا ، وأكد أن تصريحات جرافل غير دقيقة وغير صحيحة ولا تطابق ما حدث فعلاً و «أن برمك يعمل على المحافظة على حقوق السلطان في مصر» و «أن انجلترا تستطيع أن تبسط نفوذها في مصر بمفاوضات ودية مع السلطان وبعاون السلطان ، وأن المانيا ليست لها مصالح مباشرة في مصر تجعلها تثير العقبات في وجه انجلترا» (١)

لقد كان جو المحادثات بين انجلترا والمانيا عاصفاً ، وكان جرافل كثيراً ما تورث تأثيرته وينضب ، ولكن موقف المانيا بالنسبة لمصر أرغمه على التراجع والتلبيح بمطالب الألمان جميعها ، وجاء جلادستون نفسه الى حربرت برمك يعلن له أنه يشجع المانيا في سياستها الاستعمارية وأنه مستبح لآمالها الحضارية . ولعل السبب المهم الذي جعل الانجليز يراجعون هو احتمال تعاون المانيا وفرنسا البحري ، فبحرية المانيا وفرنسا مجتمعتين متفوقة في ذلك الوقت على البحرية الانجليزية ، ولما كان التقارب قويا بين برمك وفري Ferry رئيس الحكومة الفرنسية ، فبرمك يؤيد مطالب الفرنسيين الاستعمارية وموقفهم في المسألة المالية المصرية ، وفري يؤيد المانيا استطاع التحالف الجديد تحقيق أغراض تحريفين في مؤتمر برلين . على أن برمك لم يشأ أن يتحدى انجلترا أكثر من هذا ، فهو لا يثق تماماً بفرنسا ، وانجلترا من ناحيتها في أشد الحاجة الى صداقة برمك ، فالحالة في السودان كانت سيئة للغاية ومنذرة بشر مستطير ، ففي أول سنة ١٨٨٥ سقطت الخرطوم في يد المهديين وقتل جوردون وضاع ما كان لانجلترا من مركز ومهابة في الشرق بأكمله واقترحت الجيوش الروسية حدود الأفغان وحددت الهند ، وتجمعت التاعب والأزمات على

(١) الوثائق الانجليزية المنشورة في الكتاب الازرق Blue Book لسنة ١٨٨٥
فبراير ١٨٨٣ ، صحيفة Nord Deutsche Allgemeine Zeitung ٢ مارس سنة ١٨٨٥

انجلترا في أفريقيه وآسيا بشكل عديم النظر .

صفا الجو أخيرا بين المانيا وانجلترا بتراجع وزارة الأحرار ، وزاد الجو صفاء سقوط هذه الوزارة ، فلم تعد المانيا تحرك مسألة مصر من جديد إذ كانت سياسة المحافظين التقليدية هي المحافظة على صداقة المانيا . فعاد الى تأييد سياسة إنجلترا في وادي النيل ، ويظهر هذا حين وجدت الحكومة الانجليزية نفسها مضطرة الى المانيا لتعرف رأيها في أمر مصير مصر . ففي سنة ١٨٨٦ أثار لورد راندولف تشرشل Rundolph Churchill مسألة مصير مصر أمام السفير الألماني في لندن ، وأبدى قلقه من أن إحدى الدول الكبرى عازمة على إثارة موضوع جلاء الانجليز عن وادي النيل مرة أخرى ، وطلب معرفة رأي المانيا إزاء هذه الحالة الجديدة المملوءة بالندر . فرد هاتسفلت السفير الألماني في لندن بأن المسألة لن تثور في الوقت الحاضر نظرا للعلاقات الطيبة بين المانيا وانجلترا ، وعقب بزمرك في برلين بأن المانيا لن تشترك مع أى دولة أخرى في أى مطلب يتعلق بموقف الانجليز في مصر ، أما إذا لم تتعاون إنجلترا مع المانيا في المسائل الاستعمارية فالموقف لا بد متغير (١) . وقد بالغ تشرشل في شكر الألمان ، وبين أن التأييد الألماني سيجعل الحكومة الانجليزية مطمئنة إلى وضع مشاريعها الخاصة باصلاح المالية المصرية فلن تخشى الآن شيئا من فرنسا (٢) .

وكان شك بزمرك المرعب في سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يعضى في سياسته القائمة على صداقة إنجلترا وتأييد سياستها في مصر ، فهو يصرح لحكومته سولسبرى « نحن لا نستطيع أن نتمتع على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى في وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقيا ، وليس أمامنا سوى الانضمام

(١) الوثائق الالمانية هاتسفلت الى بزمرك ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦

وبرقية بزمرك الى هاتسفلت ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٢) نفس المصدر هاتسفلت الى بزمرك ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦

الى جانب انجلترا» (١) .

زال بزمرك من مسرح السياسة الأوربية في سنة ١٨٩٠ ، ولم تختلف سياسة القيصر الألماني فلهم الثاني Wilhelm II أو المستشار الجديد كاپريفى Caprivi عن سياسة بزمرك فيما يختص بمصر وإن اختلفت دوافعها الى حد ما عن دوافعه ، وكان الباعث لها على انتهاج خطة بزمرك هو التقارب الجديد بين فرنسا وروسيا الذي تم بعقد التحالف بين الدولتين ، فكان من الطبيعي إذن أن تتجه اللانايصوب انجلترا وأن تهتم بالمحافظة على صداقتها وتأييدها ، فأوربا قد انقسمت الى معسكرين المعسكر الألماني والمعسكر الفرنسي الروسي ، فكان هدف اللانايصوب هو ضم انجلترا الى المعسكر الألماني . ووجدت المانيا في التحالف الثلاثي بينها وبين النمسا وإيطاليا خير وسيلة لأرضاء الحكومة الانجليزية سواء أكانت حكومة سولسبرى أو جلادستون . فكما يكتب وزير الخارجية الألمانية مارشال Marshall الى سفيره في لندن هاتسفلت في سنة ١٨٩٣ « إتنا سنستمر في تأييد انجلترا طالما كانت لها سياسة مستقرة في مصر والشرق الأدنى ومن الاحظة التي نعتد فيها أن انجلترا غير قائمة بذلك أو نالها الوهن أمام روسيا وفرنسا يجب أن نبحث عن وسائل أخرى لوقف أى اعتداء من جانب التحالف الفرنسي الروسي » (٢)

فألمانيا إذن مستعدة للاخذ بناصر انجلترا طالما وقفت انجلترا حاجزا قويا أمام مطامع فرنسا وروسيا .

فلا غرابة إذن اذا ناصرته الحكومة الألمانية وزارة سولسبرى نصرًا ، ووزراء ، واذا أيدت وزارة روزبري من بعده تأييدا قويا ، فكلاهما الى حد كبير كان ميالا الى الانضمام الى التحالف الثلاثي معضدا لسياسته . وهذا يفسر لنا تأييد اللانايصوب انجلترا

(١) الوثائق الألمانية رقم ٧٠٢ وما بعدها عن

Langer: European Alliances and Alignments.

(٢) الوثائق الألمانية ٩ يوليو ١٨٩٣

في مشاريعها المتعلقة بالدين والقضاء ومحاولاتها إصلاح الحالة في مصر ، كما يفسر لنا جهود ألمانيا في تهدئة روع الباب العالي من ناحية مركز الانجليز في مصر والتقريب ما بين وجهتي النظر الألمانية والانجليزية فيما يختص بمصر ، ومحاربة جهود فرنسا المستمرة في إثارة الباب العالي للاحتجاج ضد انجلترا أو عرض مسألة مصر من جديد على الدول الكبرى .

ولما جاءت وزارة روزبري الذي تعين فيها لورد كمبرلي Lord Kimberley وزيراً للخارجية ظلت ألمانيا على موقفها لا تثير صعوبات أمام انجلترا طالما لم تمس المصالح الألمانية بضرر ، وطالما كان لورد كمبرلي مخلصاً في تنفيذ آراء رئيسه روزبري ، ولذا لما اعوج كمبرلي قليلاً عن السنن الذي اختطه رئيسه ، وهدد بالعمل على التقرب من فرنسا ، وذلك حين أبدت القنصلية الألمانية بعض المعارضة للسياسة الانجليزية في مصر في سنة ١٨٩٤ ، بينت الحكومة الألمانية لوزير الخارجية البريطانية بأنه مخطئ في اتباع مثل هذه السياسة فإنه سينجم عنها لانجلترا متاعب لا قبل لها بها ، وأنها (أي الحكومة الألمانية) تعلم أن السفير الفرنسي قد هدد انجلترا بالتقرب من ألمانيا نهائياً والتفاهم على مسألة الازماس والاورين ، وأنها (أي الحكومة الألمانية) تستطيع تهديد انجلترا وإثارة مشاكل معقدة لها في مصر بتأييد سياسة فرنسا ، وتستطيع بعد ذلك التفاهم مع الفرنسيين فيما يختص بحدود الرين ، فما كان أمام وزير الخارجية الانجليزية إلا الاسراع في التراجع ، ولذا فهو يضطر الى تغيير موقفه وتحسين لهجته مع الحكومة الألمانية بل وشكرها على موقفها العام إزاء انجلترا في مصر^(١) . نتيجة لذلك أصدرت الحكومة الألمانية الى قنصلها العام في مصر بارون فون هايكنج von Heyking بتعايات توجه فيها نظره بالا يعارض سياسة انجلترا وألا ينضم الى اعدائها في المستقبل الا اذا جاءت له أوامر من حكومته تنفذ ذلك .

(١) الوثائق الألمانية مارشال الي هانسفلت ٢ مايو سنة ١٨٩٤

وكان يهيم ألمانيا في ذلك الوقت بقاء مسألة مصر معلقة ومعقدة وموضع تنازع شديد بين إنجلترا وفرنسا حتى تری الحكومات الانجليزية ضرورة المحافظة دائما على صداقة ألمانيا، كما كان يهيم ألمانيا ألا تؤيد سياسة إنجلترا على طول الخط حتى لا تعتبر إنجلترا ذلك واجبا يجب أن تؤديه ألمانيا باستمرار نحوها ولكن ينبغي أن تكون سياسة ألمانيا نحو مصر — كما يری الساسة الألمان من القيصر الى المستشار كابرني الى وزير الخارجية مارشال — يجب أن تكون سياسة ألمانيا بصفة عامة غامضة مبهمه لا تعرف إنجلترا حدودها ولا منتهاتها ولا مقاصدها، وأن تقوم بتأييد السياسة الانجليزية في للناسبات المختلفة على حسب ما تملي المصالح الألمانية ومصالح دول التحالف الثلاثي^(١) وأن تتخذ ألمانيا من مسألة مصر وسيلة لتسوية حسابها مع إنجلترا في المسائل الأوربية والمسائل الأخرى التي تمهبا .

ولذا لم يتورع القيصر الألماني عن تهديد إنجلترا بمعارضة سياستها في مسألة مصر اذا لم تحل مسألة الكنفو حلا مرضيا لألمانيا، وتم للقيصر ما أراد . «فصر، كما يقول بارون فون روتنهام في وزارة الخارجية الألمانية، كبلغاريا بالنسبة لنا، ليست غاية سياسية في حد ذاتها، ولكنها وسيلة لتنظيم علاقات ألمانيا مع الدول الأوربية (وخاصة إنجلترا) بطريق تتفق والمصالح الألمانية». ولذا لا يهيم ألمانيا القيصريه في ذلك الوقت أن يشتجر الحديدو عباس الثاني في نزاع مستمر مع لورد كرومر، ولا يهيمها من يكون المنتصر منها، ولا يهيمها اذا كان الرأي العام المصري قد نما شعوره بالقومية، ولا تكثرث لأمانى المصريين في الاستقلال اذا تعارض هذا مع المصالح الألمانية، وإنما يهيم ألمانيا قبل كل شيء أن تكون صديقه لانجلترا، وأن تقوم مشاكل معقدة في مصر لاستطيع إنجلترا حلها وحدها فتضطر إلى طلب المعونة من ألمانيا والانصراف عن الوداق الثنائي الفرنسي الروسي.^(٢)

(١) نرى المصدر روتنهام Rothenham . وزارة الخارجية الألمانية الى بارون فون هاينكج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤ .

(٢) الوثائق الألمانية — بارون فون روتنهام الى بارون فون هاينكج .

وحين قررت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع السودان والقضاء نهائيا على ثورة المهديين الدراويش انهز القيصر الالماني هذه الفرصة لتأييد انجلترا تأييدا تاما ضد فرنسا . هددت فرنسا وثار الرأي العام الفرنسي وانذرت الحكومة الفرنسية بالحرب ، ولكن التأييد الالماني قوي من مركز انجلترا بدرجة جعلتها تتحدي فرنسا وتقوم بتنفيذ أغراضها وارسال الحملة آمنة مطمئنة . وافق القيصر الالماني أولا على أن تقوم المالية المصرية بنفقات الحملة الى دققة الا أنه رفض رفضا تاما مشروع سولسبري الذي يرمي الى تقسيم الدولة العثمانية وانفراد الانجليز بمصر ، فالقيصر صديق الدولة العثمانية في ذلك الوقت ولا يبغي انحلالها ، وأيد القيصر وزارة سولسبري في مسألة استرجاع السودان لأنه كان يعمل على إزالة الاثر السيء الذي أحدثته بركة كروجر في انجلترا ، هذه البرقية التي أثارت الحكومة الانجليزية والرأي العام الانجليزي ضد المانيا . ولأنه كان يخشى أنه اذا لم تؤيد الحكومة الالمانية انجلترا في مسألة السودان ربما دعا ذلك الموقف انجلترا الى التفكير في تغيير سياستها نحو المانيا ، وتعضيد الفريق القائل بضرورة إصلاح العلاقات الانجليزية الفرنسية والانضمام الى الوفاق الثنائي الفرنسي الروسي ، لا سيما وأنه أرى القيصر يعلم جد العلم أن لورد سولسبري ولو أنه ميال الى مجاملة المانيا والى تأييد سياساتها الأوربية والاستعمارية الا أنه غير ميال إلى تجديد اتفاقية البحر الأبيض مع ايطاليا صديقة المانيا ، الاتفاقية التي عقدت في سنة ١٨٨٧ ، هذه الاتفاقية التي كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثي في البحر الأبيض المتوسط ، كما أن القيصر يعلم أن سولسبري يود لو استطاع تحسين علاقته بفرنسا والاتفاق على تسوية المسائل المختلف عليها بينهما .

وكان تأييد المانيا لانجلترا في نظر القيصر ضروريا جدا من ناحية أخرى ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا هزيمة منكرة أمام الاحباش في موقعة عدوة

فلقد كان القيصر دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعها بضرورة اغائة الايطاليين حلفائه ، ولذا حاولت وزارة سولسبرى تبرير الحملة الى السودان أمام دول التحالف الثلاثي، المانيا والنمسا وايطاليا، برغبة انجلترا في نصره الايطاليين المدحورين قبل أن يؤخذوا أخذاً ويلاً .

وبالرغم من الاتفاق الودي الذي تم بين انجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ بشأن مصر ومراكش ، ذلك الاتفاق الذي أطلق به الانجليز حرة في مصر ، واعترفت فيه فرنسا بالاحتلال الانجليزي ، ولم تعد انجلترا في كبير حاجة الى تأييد المانيا السياسي - بالرغم من ذلك فقد ظلت العلاقات الانجليزية الالمانية بالنسبة لمصر بصفة عامة جيدة ، فلم تعمل المانيا من جانبها على احراج مركز الانجليز في مصر ، وذلك خشية زيادة توثق العلاقات الفرنسية الانجليزية، فلقد كانت السياسة الالمانية الخارجية ترمي الى الفصل بين الدولتين بكل الطرق الممكنة . كذلك لم تبد المانيا حماساً كبيراً للمشايخ الانجليز ، ومن ناحية ثالثة كان اهتمام المانيا في ذلك الوقت منصرفاً عن مسألة مصر موجهاً الى السياسة العالمية Weltpolitik الى المسائل التي هم المانيا مباشرة مسائل آسيا الصغرى والعراق حيث كانت المانيا تعمل على مدتها الى الخليج الفارسي ، مسائل الشرق الاقصى وخاصة بعد الحرب الروسية اليابانية ، هذه الحرب التي اندحرت فيها روسيا والتي أخذت بعدها اليابان تترغم شرق آسيا، ثم هناك مسائل البلقان التي أخذت تئذ باصطدام خطير بين دوله الناشئة، وبتنازع بين حليفة المانيا النمسا وبين روسيا

وظل موقف المانيا واحدا لا يتغير حتى قامت الحرب الاوربية الاولى وأعلنت انجلترا زوال سيادة تركيا وبسطت حمايتها على مصر فكان من الطبيعي ألا تعترف لمانيا بذلك التغيير في مركز مصر ولا في مركز الانجليز في مصر ، ذلك التغيير الذي لا يبرره عرف دولي ولا قانون سياسي أخلاقي ، ظلت المانيا على رأيها في أن

مصر جزء من الدولة العثمانية وأيدت الأتراك في محاولاتهم اليائسة غزو مصر من الشرق وطرد الانجليز منها . إلا أن انهزام الألمان في الحرب واضطرابهم إلى قبول معاهدة فرساي أرغمهم على الاعتراف بالحماية الانجليزية علي مصر ، ولما أعلنت انجلترا انتهاء الحماية وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كانت المانيا من الدول التي اعترفت بالمركز الجديد لمصر كدولة مستقلة وتبادلت التمثيل السياسي معها .

محمد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر

المراجع

لا توجد في ذلك الموضوع بالذات في ثنايا الدراسات التاريخية للمسألة المصرية في الربع الأخير للقرن التاسع عشر الا اشارات لا تغنى كثيرا .

هذا البحث قائم على دراسة مركزة للوثائق السياسية التي أصدرتها الحكومة الألمانية عقب الحرب الكبرى الاولى والمسماة

Grosse Politik der Europäischen Kabinette

وهي تمتد خلال المدة من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩١٤ . وعلى هذه الوثائق يعتمد البحث الى حد كبير وأشارت اليها خلاله «بالوثائق الألمانية» فحسب .

وتكمل هذه الوثائق مجموعة الوثائق السياسية التي نشرتها الحكومة الفرنسية

بعد الحرب الكبرى الاولى والمسماة : Documents Diplomatiques Français . وهي تشمل نفس المدة التي تشملها الوثائق الألمانية .

وبلى هاتين المجموعتين في الاهمية الوثائق التي نشرتها الحكومة الانجليزية في الكتب الزرق Blue Books في خلال المدة ما بين حرب السبعين سنة ١٨٧٠ ، وسنة ١٩١٤ ، هذه الكتب الخاصة بالمسائل المصرية . وهي لا تشمل على عدد كبير من الوثائق الخاصة بموقف المانيا ازاء الاحتلال . اهم هذه الكتاب الازرق الكتاب لسنة ١٨٨٢ ، ثم هناك وثائق نشرتها وزارة الخارجية الفرنسية في الكتب الصفرة Livres Jaunes وخاصة الكتاب الاصفر للسنين ما بين ١٨٨٣ — ١٨٩٣ فهو يبين موقف فرنسا ازاء المسألة المصرية وتشير بعض وثائقه الى موقف المانيا .

ولا ريب في أن وثائق وزارة الخارجية الانجليزية في لندن تلي في الاهمية

الوثائق الألمانية فيما يختص بهذا الموضوع لاسيما الوثائق الخاصة بتركيا F. O. 78 وفرنسا F. O. 27 والمانيا F. O. 64 ، ولقد أطلعت على كثير من هذه

الوثائق أثناء وجودى فى انجلترا . ولعل أهم هذه الوثائق الرسائل التى أرسل بها السفير الانجليزى فى برلين Lord Odo Russell الى حكومته ، ولقد أشار الى بعض هذه الرسائل ونشر بعضها Winifred Tuffs فى رسالته للدكتوراه من جامعة لندن .
An Ambassador to Bismarck : Lord Odo Russell.
Muller, London, 1938 ولقد فصل : وؤلف هذا البحث بعض أجزاء ذلك الموضوع فى كتاب يعده للطبع عنوانه موقف الدول العظمى ازاء الاحتلال الانجليزى لمصر . وهناك بعض الكتب التى كتبت عن حياة سياسى ذلك العصر أهمها فيما يختص بهذا البحث

- Bismarck: Some Secret Pages of his History. A diary by Dr. Moritz Busch. 3 vols. (Translation, Macmillan London 1898.
Bismarck: The Man and Statesman. Reflections and Reminiscences of Otto Prince von Bismarck. Trans by A.J Butler 2 vols. Smith. London, 1898.
Disraeli, Life of, by Buckle Murray. London 1929.
Gladstone, Life of, by J. Morley. 2 vols.
Granville, Life of, by Edmond Fitz maurice (4th impression) Longmans, London 1905.

ومن الكتب والدراسات التى لها قيمة فى هذا البحث والتى درست العلاقات الدولية بالنسبة لمسائل البحر الابيض المتوسط

- Knaplund, P.: Gladstone and Britain's Imperial Policy, Allen and Uniwin London 1927.
Langer, W.: Alliances and Alignments. New York 1931.
Mitchell P. B.: The Bismarckian Policy of Conciliation with France. University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1935.
Penson L.: The Principles and Methods of Lord Sabsbnry's Foreign Policy, Cambridge Historical Journal 1935.
Penson and Temperley: A Century of Diplomatic Blue Books, Cambridge University Press, Cambridge, 1938.
Safwat M. M.: Tunis and the Great Powers. Baganis Alexandria 1943.

Schuman F. L.: International Politics. 2nd Edition Mc Gra. Hill, New York 1937.

Seton-Watson R.W.: Disraeli and Gladstone and The Eastern Question Macmillan. London. 1935.

Sumner, B.H.: Russia and The Balkans. Clarendon Oxford. 1937.

محمد مصطفى صفوت